الفصل الثاني

قابيل وهابيل

لم يفلح إبليس مع أدم بعدما أوقعه في شراك المعصية الأولى والأخيرة أن ينال منه مرة أخرى؛ لأن أدم أخلص في توبته لله وظل يسعى في الأرض لينّفذ ما كلفه الله من مهمة بالأرض، أن يعبد الله حق عبادته، ويعمّر الأرض، ويعلم ذريته تكاليف الوجود ، ولكن إبليس لم ييئس من أدم فتوجه بقوة حقده إلى أبنائه ،ومن نقطة ضعف الإنسان دائما يجد إبليس سبيل وصوله.

فقال تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(٢٨)إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) المائدة.

عندما نزل أدم ليعمّر الأرض كان لابد له من قانون يحكمه وضعه الله له، وآدم قد تطهر من معصيته، وقانون الله في أرضه واجب التنفيذ، حتى تتعمر الأرض كان لا بد من وجود عناصر من البشر؛ ليكونوا سواعد هذا التعمير؛ فأمر الله آدم أن يزوج ابن البطن الأولى من ابنة البطن الثانية؛ وهذي لحكمة ربي في تنظيم كونه، وما أن أخبر ادم قابيل وهابيل بذلك وهما أول ذكرين لأدم .. تمرد قابيل ورفض وقال :لا أريد بل أريد ما بيد أخي وكان الله قد أمر آدم أن يزوج قابيل من أخت هابيل التي جاءت معه في نفس البطن وكانت قليلة الجمال، وان يزوج هابيل من أخت قابيل التي جاءت معه في نفس البطن، وكانت فائقة الجمال، ولله في قسمته حكم لا يدركها الإنسان إلا بالوقت.. رضي هابيل بقسمته ليس لأن الفتاة التي قسمت له فائقة الجمال ولكن لأنه نصيبه من الله، وذهب قابيل يصرخ لا يا أبي أنى أريد الأخت الأخرى، أفهمه آدم إن هذا قدر الله وقسمته، فلا تتمرد من أمر الله يا قابيل وعرفه العاقبة من العصيان، ولكن إبليس حزم أمتعته، وجلس على باب ضعف قابيل في الدخول والخروج ينادي يا قابيل: لا تسمع كلام آدم كن عند

رأيك وطلبك تمسك برغبتك كيف تتزوج هذه الفتاة القبيحة وهابيل يتزوج الفتاة الجميلة؟

كان سبيل إبليس من نفس قابيل الغيرة، نعم عندما حدثت نفس قابيل بالأفضل كانت فرصة إبليس ليهوى بنفس قابيل إلى المعصية، وظل يلاحقه بكل وقت، وينادي يا قابيل خذ الفتاة التي راقت لك ولا تصغي لأبيك آدم فهو يفضل هابيل عليك، وهنا صمم قابيل على طلبه، وذهب لأبيه آدم مرة اخرى يقول: أبي أني أريد أن أتزوج من الفتاة الجميلة، فقال له آدم: يا بني إن هذا أمر الله فعليك أن تمتثل ولا تعصي ولا تكن كأبيك يوم اتبع خطوات الشيطان، أنه لك يا ولدي عدو مبين، ويهمس إبليس بأذن قابيل لا تسمع له انه يحب هابيل عنك ويريد له الخير ويصغى قابيل لإبليس ويقول لأبيه: لا يا أبي لن أتزوج إلا التي أحبها فيقول آدم أذهب إلى ربك لعله يرضى.

وهنا ذهب قابيل وهابيل يقدما قرباناً يتقربا به إلى الله فهابيل لا يريد أن يسبب لأخيه الحزن، وقابيل يتبع إغواء الشيطان فماذا فعلا؟ هابيل قدم أفضل ما عنده من قربان وقابيل قدم أبخس ما عنده من قربان، تقبل الله

من هابيل علامة لرضا الله عن هذا العبد المطيع لأمر ربه و أبيه، ورفض قربان قابيل.

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك، فذكر السدي، عن أبي مالك، و أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة:

أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى، وأن قابيل أراد أن يتزوج بأخت هابيل، وكان أكبر من هابيل، وأخت قابيل أحسن، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانًا.

وذهب آدم ليحج إلى مكة، واستحفظ السماوات على بنيه، فأبين، والأرضين، والجبال فأبين، فتقبل قابيل بحفظ ذلك.

فلما ذهب قربا قربانهما، فقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب غنم، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه، فنزلت نار، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب، وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال: إنما يتقبل الله من المتقين.

وروي عن ابن عباس، من وجوه أخر.

وعن عبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بن عمرو: وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج أن يبسط إليه يده.

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشرًا لتقريبهما القربان، والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له، ولم تدع لي، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه، فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذا هو به فقال له: تقبل منك، ولم يتقبل مني، فقال: { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } فغضب قابيل عندها، وضربه بحديدة كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرة، رماها على رأسه، وهو نائم، فشدخته أى شجته نصفين.

وقيل: بل خنقه خنقًا شديدًا وعضًا، كما تفعل السباع فمات. والله أعلم.

"البداية والنهاية لابن كثير"

وهنا يحدثنا القرآن الكريم عن هذا الموقف العظيم، وكيف وجه آدم ولديه ليقدما قرباناً إلى الله ليفصل في أمرهما.

فالقصة في القرآن تقول أن كلاً من قابيل وهابيل قدَّم صدقة قربة إلى الله سبحانه، فتقبل الله صدقة هابيل؛ لصدقه وإخلاصه، ولم يتقبل صدقة قابيل؛ لسوء نيته، وعدم تقواه، فقال قابيل -على سبيل الحسد- لأخيه هابيل: لأقلتلنك، بسبب قبول صدقتك، ورفض قبول صدقتي، فكان رد هابيل على أخيه: {إنما يتقبل الله من المتقين}، فكان ردُّ هابيل لأخيه قابيل ردًّا فيه نصح وإرشاد؛ حيث بيَّن له الوسيلة التي تجعل صدقته مقبولة عند الله.

ثم إن هابيل انتقل من حال وعظ أخيه بتطهير قلبه من الحسد، إلى تذكيره بما تقتضيه رابطة الأخوة من تسامح، وما تستدعيه من بر، فقال لأخيه: {لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين}، فأخبره أنه إن اعتدى عليه بالقتل ظلماً وحسداً، فإنه لن يقابله بالفعل نفسه؛ خوفاً من الله، وكراهية أن يراه سبحانه قاتلاً لأخيه.

ثم انتقل هابيل إلى أسلوب آخر في وعظ أخيه وإرشاده؛ إذ أخذ يحذره من سوء المصير إن هو أقبل على تنفيذ فعلته {إني أريد أن تبوء بإثمي و إثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين}.

لم يسمع قابيل لنصائح أخيه، وضرب بها عُرْض الحائط، ثم انساق مع هوى نفسه، وزينت له نفسه الإقدام على قتل اخيه هابيل، فارتكب جريمته، فقتل أخاه.

على أن قابيل القاتل لم يكتف بفعل تلك الجريمة، بل ترك أخاه ملقى في العراء، معرضاً للهوام والوحوش، ولكن بعث الله غراباً يحفر في الأرض حفرة ليدفن تلك الجثة الهامدة التي لا حول لها ولا قوة من البشر، فلما رأى قابيل ذلك المشهد، وأخذ يلوم نفسه على ما أقدم عليه، وعاتب نفسه كيف يكون هذا الغراب أهدى منه سبيلاً، فعض أصابع الندامة، وندم ندماً شديداً، فقال عندها قابيل:

كما ذكر القرآن الكريم :(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) (٣١) المائدة

أنه شعور الندم الذي يقتل النفس الخيرة بالأصل وهى النفس اللوامة، إبليس لن ينصفك أبداً وقت تحتج عليه بأنه سبب وقوعك في المعصية وورد في كتاب الله عزوجل الدليل على ذلك في قوله تعالى:

"كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)الحشر

وما زال إبليس يتبع ذرية ادم لحقده وكرهه لآدم وذريته .